أستاذ المادة (د/ أحمد الصغير)

الفرقــة الاولــى – المــصادر الاولــى للتــاريخ الإسلامي

- المشاهدة والمشاركة مصدرين من مصادر التاريخ الإسلامي. (٧ درجات)

المشاهدة:

تضفي المشاهدة على النص التاريخي حيوية وحركة، وتمكن المؤرخ من الوقوف على الأحداث بجزئياتها الدقيقة، وتلك خصيصة تتميز بها المشاهدة بين غيرها من المصادر التاريخية:"..... ولا ريب في أن هذين المصدرين: المشاهدة والرواية الشفوية يضيفان على النص حيوية شديدة".

وقد توفرت لأبي الفدا أقصى درجات المشاهدة وأعمقها، بما يصل بها إلى درجة المشاركة، والعلاقة بين المشاركة والمشاهدة هي علاقة العام بالخاص، إذ كل مشاركة مشاهدة، وليس العكس بصحيح، فقد يشاهد المؤرخ الأحداث دون أن يشارك فيها أو يكون له تأثير في توجيهها. أما إذا شارك المؤرخ في الأحداث وساهم بدورة في توجيهها لزم عندئذ توفر عنصر المشاهدة.

وقد بلغ أبو الفدا رتبة الإمارة، وشارك في الحروب ومارس السياسة وإدارة شئون البلاد، ومن ثم فقدا جاء تاريخه للأحداث التي عاصرها ناتجاً عن مشاركة على أعلى المستويات في السياسة والحرب والإدارة. ولعل مقارنة بين الصياغة التاريخية التي قدمها أبو الفدا للأحداث التي عاصرها والصياغات التي قدمها غير من المؤرخين لنفس الأحداث توضح الفارق بين من يتخذ مصدرة من المشاركة ومن يؤرخ معتمداً على غيره من المصادر.

وقد شارك أبو الفدا في الحملة التي قادها السلطان الأشراف خليل بن قلاوون على عكا، وأرخ لها، ولعل مقارنة بين التصوير التاريخي للأحداث عند المقريزي الذي يفتقد في تاريخه لعنصر المشاهدة وبين تصوير

الأحداث التاريخية تقلم أبي الفداء يبين مدى تأثير المشاركة على تصوير المؤلف للحدث وكيفية صياغته.

يسجل المقريزي فيما لا يزيد عن بضع عشرة كلمة انضمام عسكر حماة إلى الحشود العسكرية التي جمعها المماليك تمهيداً لمهاجمة عكا فيقول: "فوصل الملك المظفر صاحب حماه إلى دمشق في عشرينه بعسكره وبمجانيق وزردخانه.

أما أبو الفدا الذي كان أحد أمراء عسكر حماه في هذه الحملة العسكرية فإنه يشير إلى انضمام عسكر حماه إلى جيوش السلطان في الحملة واصطحابهم المجانيق وغيرها من أدوات القتال بصورة أشد حيوية وحركة، ويصف ذلك في حوالي ثمانية أسطر تنبض بالحركة والحيويةن ويركز على دوره في الأحداث ومعاناته الشخصية"..... وتسلمنا منجنيقاً عظيماً يسمى المنصوى حمل مائة عجلة، فسرقت في العسكر الحموي، وكان المسلم إلى منه عجلة واحدة لأني كنت إذ ذاك أمير عشرة، وكان سيرنا بالعجل في أواخر فصل الشتاء فقاسينا من ذلك بسبب جر العجل وضعف البقر وموتها بسبب شدة البرد شدة عظيمة".

أما أحداث المعركة فيصفها المقريزي وصفاً عاماً في ستة أسطر بينما يقدم أبو الفدا للمعركة بصورة عامة، ويقدم وصفاً عاماً: "واشتد عليها القتال، ولم يغلق الفرنج غالب أبوابها، بل كانت مفتحة وهم يقاتاون فيها".

ثم يتنقل من الصورة العامة للمعركة إلى صورة جزئية تمثل جانباً من القتال شارك فيه بسيفه قبل أن يخطه بمدادة في نحو ثمانية أسطر، قال في بعضها: "واحضر وابطسة فيها منجنيق يرمى علينا وعلى خيمنا من جهة البحر فكنت منه في شدة حتى اتفق في بعض الليالي هبوب رياح قوية فارتفع المركب وانحط بسبب المؤج، وانسكر المنجنيق الذي فيه بحيث انحطم فيه ولم ينصب بعد ذلك".

وبعد تلك الصورة التي قدمها أبو الفدا لجانب من المعرك تأثر به تأثيراً مباشرًا باعتباره أحد صغار قادة الجيش حينئذ، وحيث كان أمير عشرة يقدم صورة أخرى لهجوم تعرضوا له من جانب الفرنج يقول: "وخرج الفرنج في

أثناء مدة الحصار بالليل، وكبسوا العسكر وهزموا اليزكية، وصلوا إلى الخيام، وتعلقوا بالأطناب، ووقع منهم فارس في جوة مستراح بعض الأمراء فقتل هناك، وتكاثرت عليه العسكر فولى الفرنج منهزمين إلى البلد، وقتل عسكر حماه منهم عدة، فلما أصبح الصباح علق الملك المظفر صاحب عدة من رؤوس الفرنج في رقاب خيلهم التي كسبها منهم، واحضروا ذلك إلى السلطان الملك الأشراف.

أما لحظة الفتح فيؤرخ لها مصوراً أحداثها بقوله: "واشتدت مضايقته العسكر لعكا حتى فتحها الله تعالى لهم في يوم الجمعة السابع عشر من جمادي الآخرة بالسيوف ولما هاجمها المسلمون هرب جماعة من أهلها في المراكب، وكان في داخل البلدة عدة أبراج عاصية بمنزلة قلال دخلها عالم عظيم من الفرنج وتحصنوا بها، وقتل المسلمون وغنموا من عكا شيئاً يفوق الحصر وهذا المثال نموذج لحالات كثيرة ارخ خلالها أبو الفدا للأحداث السياسية والعسكرية في عصره معتمداً على المشاركة مما جعل تاريخه أدق وأكثر إحاطة بجزئيات أغلقها غيره من المؤرخين ليس من طبيعة الدراسة استقصاءها.

٢- الحديث النبوي والشعر من مصادر التاريخ الإسلامي.

الحديث:

لم يقصد النبي ***{صلى الله عليه وسلم}*** في أحاديثه التأريخ، فهو نبي مرسل لا مؤرخاً، إلا أنه تعرض- كما تعرض القرآن الكريم- في أحاديثه إلى أخبار الأنبياء والرسل والأمم الماضية منذ خلق آدم حتى عهده. فالإسلام ما هو إلا الحلقة الأخيرة من سلسلة الأديان على الأرض، وفي إطار هذا التواصل بين الإسلام وما سبقه من رسالات وردت الأحاديث بشأن الحقب القديمة فضلاً عن الحقبة الإسلامية وما واكبها من أحداث.

وقد تعرض أبو الفدا في تأريخه للأمم الماضية، والرسالات السابقة وأحداث الدعوة الإسلامية، ومن ثم فلم يخل تاريخه من أحاديث نبوية اتخذها مصدراً اعتمد عليه في تأريخه لحقبة الدعوة الإسلامية وما سبقها من حقب تاريخيه.

ففي حديثه عن خلق آدم عليه السلام وبنيه، واختلاف ألوانهم وتباين طباعهم ينقل أبو الفدا: "..... من الكامل لابن الايثر قال: قال النبي ***{صلى الله عليه وسلم}*** أن الله تعالى خلقه من قبضة من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض فيهم الأحمر والأسود والأبيض وبين ذلك، وفيهم السهل والحزن وبين ذلك".

ولا يلتزم أبو الفدا بإثبات الروايات المتعددة حول الخبر الواحد التزام الطبري وابن الأيثر فربما اكتفى بالخبر الواحد، ولا يوجه اهتمامه باثبات سند الحديث قدر اهتمامه بالمتن، فقد أورد ابن الأثير الحديث السابق بسنده مرفوعاً عن النبي ***{صلى الله عليه وسلم}*** يقول: "وروي أبو موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها.... الحديث" وفي حديثه عن شرف النبي ***{صلى الله عليه وسلم}*** وآل بيته يقول: "وأما شرف النبي ***{صلى الله عليه وسلم}*** فقد روى الحافظ البيهقي.. بإسناد يرفعه إلى العباس عم النبي ***{صلى الله عليه وسلم}*** قال: "إن قريشاً إذا التقوا لقوا بعضهم بعض بالبشاشة، وإا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها، فغضب رسول الله ***{صلى الله عليه***

وسلم} عند ذلك غضباً شديداً، ثم قال والذي نفس محمد بيديه لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم الله ورسوله.

ويورد رواية أخرى للحافظ يقول: "وذكر في موضع آخر عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: "أنا لعقود بفناء رسول الله ***{صلى الله عليه وسلم}***: إذا مرت امرأة، فقال بعض القوم: هذه بنت رسول الله ***{صلى الله عليه وسلم}***، فقال أب سفيان: مثل محمد في بني هاشم مثل الريحان وسط النتن فانطلقت المرأة فأخبرت النبي ***{صلى الله عليه وسلم}*** فجاء ***{صلى الله عليه وسلم}*** يعرف في وجهه الغضب فقال: ما بال أقوال تبلغني عن أقوام. إن الله عز وجل خلق السماوات سبعاً فاختار العلي منها فأسكنها ما شاء من خلقه، ثم خلق الخلق واختار من الخلق بني آدم واختار من بني آدم العرب. واختار من العرب مضر واختار من مضر قريش واختار من قريش بني هاشم، واختارني من بني هاشم.

ويروى عن عائشة أيضاً قوله ***{صلى الله عليه وسلم}*** في شرف قومه من بني هاشم "قال لي جبرائيل: قلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد رجل أفضل من محمد، وقلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد أحد من بني أب أفضل من بني هاشم" وفي خبر له عن غزوة أحد يسوقه أثناء حديثه عن "المهراس" وهي عين ما بأحد يقول: "وفي الحديث أن رسول الله ***{صلى الله عليه وسلم}*** عطش يوم أحد فجاء علي ابن أبي طالب في درقة من الماسي فعافه رسول الله ***{صلى الله عليه وسلم}*** وسلم وغسل به الدم من وجهه".

وفي تاريخه لغزوة حنين وما أسفر عنه نظام توزيع الغنائم من موجده أحسها الأنصار نتيجة لحرمانهم من الغنيمة يقول: "ولما فرق رسول الله ***{صلى الله عليه وسلم}*** الغنائم لم يعط الأنصار شيئاً فوجدوا في أنفسهم. قال: أوجدتم يا معشر الأنصار لعارية من الدنيا ألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، إما ترضون أن يذهب الناس بالبعير والشاه، وترجعون برسول الله إلى رحالكم، أما والذي نفس محمد بيده لولا

الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار".

الشعر:

اعتمد أبو الفدا على الشعر كمصدر من مصادر للتأريخ للأحداث القديمة والإسلامية حتى عصره وذلك خاصة في تاريخ العرب قبل الإسلام إذ الشعر ديوان العرب، وفيه خبرهم وأخبار الدولة الإسلامية حتى عصره وكان الشعر عاملاً مساعداً في تقرير الحقائق التاريخية وإثباتها: "على أن الاستشهاد بالشعر في إثبات الحقائق التاريخية يجب أن يكون في حالة الضرورة القصوى، لأن الشعر ليس مصادراً أساسياً للتاريخ".

ومن ثم اصطنع أبو الفدا الشعر وسيلة لخدمة التاريخ واتخذه مصدراً من مصادر، ففي تاريخه مثلاً للجزيرة العربية في الجاهلية يعرض للصراع الذي دار بين قريش وخزاعة حول القيام بشئون الكعبة، وتغلب قريش بقيادة قصي بن كلاب على خزاعة سنة أربعين وأربعمائة للميلاد.

ويورد أبو الفدا ما رددته بعض الروايات من شراء قصي مفاتيح الكعبة من أبي غيشان الخزاعي بزق خمر ويذكر قول الشعراء في ذلك ومنه قول الشاعر:

باعت خزاعة بيت الله اذ سكرت

بزق خمر فبئست صفقة البادي

باعت سدانتها بالنذر وانصرفت

عن المقام وظل البيت والنادى

وفي تاريخه لأمرئ القيس الشاعر الجاهلي المعروف يتعرض أبو الفدا لشعره ومن قوله ذلك في أبياته التي فيها:

وبُدلت قرحا داميا بعد صيحة

لعل منايانا تحولن ابوءسا

فمات امروء القيس بعد عودة من عند قيصر في بلاد الروم عند جيل يقال له عسيب ولما علم بموته هناك قال:

أجارتنا أن الخطوب تنوب

وأني مقيم ما أقام عسيب

ويروى قوله حارثه في ابنه زيد عند فقده وكان قد بيع في مكة:

بكتب على زيد ولم ادر ما أفعل

احى أم أتى دونه الأجل

تذكرينه الشمس عند طلوعها.

ويعرض ذاكراه إذا قارب الطفل

وإن هبت الأرياح هيجن ذكره

فيا طول ما حزني عليه ويا وجل

وفي حديثه عن عين ماء تسمى المهراس بجبل أحد، قتل بالقرب منه حمزة بن عبد المطلب عم النبي ***{صلى الله عليه وسلم}*** في غزوة أحد يورد قول سديف:

واذكروا مقتل الحسين وزيد

وشهيد بجانب المهراس

وفي تاريخه للخليفة العباسي الأمين الذي تولى الحكم سنة ثلاث وتسعين ومائة خلفاً لأبيه هارون الرشيد، وظل بها خمس سنوات حتى قتل سنة ثمان وتسعين ومائة في الصراع الذي دار بينه وبين أخيه المأمون، يورد أبو الفدا قول ابي نواس:

سخر الله للأمين مطايا

لم تسخر لصاحب المحراب

فإذا ما ركابه سرن برا

سار في الماء راكباً ليث غاب

عجب أناس إذا رأوك عليه

كيف لو أبصروك فوق العقاب

ذات سور ومنسر وجناحين

تشق العباب بعد العباب

وفي تأريخه لهزيمة الصليبيين بدمياط أمام الأيوبين سنة سبع وأربعين وستمائة، ووقع ملك فرنسا في الأسر، يورد جمال الدين يحيى بن مطروح.

قل للفرنسيس إذا جئته

مقال صدق عن قؤول فصيح